

ترجمة الرموز الثقافية من خلال تجربة قناة "البراعم" للأطفال

نور الدين دحمان

مخبر تعليمية الترجمة وتعدد الألسن

جامعة حسيبة بن بوعلي

الشلف - الجزائر -

marof555@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2017/06/30

تاريخ المراجعة: 2017/04/20

تاريخ الإرسال: 2016/12/30

ملخص:

شكلت انطلاقة مجموعة "الجزيرة" للإعلام بدولة قطر نقطة فارقة في عالم الإعلام العربي المعاصر، حيث وسعت النشاط الإعلامي ليشمل مختلف الشرائح الاجتماعية. ومن ضمن الشرائح المستهدفة فئة الأطفال بواسطة قناتي الأطفال "براعم" Baraem والجزيرة أطفال Aljazeera children.

ومن خلال استطلاع ومشاهدة ما يبث يمكن تمييز نصوص عربية أصيلة وأخرى مترجمة فأما النصوص فإن نقلها إلى العربية بما تحمل هذه النصوص من رموز ثقافية غير عربية قد يكون رافدا لبناء شخصية ثقافية معاصرة للطفل العربي، وقد يكون عاملا من عوامل الصراع النفسي لدى الطفل العربي في مرحلة عمرية من أخطر مراحل الاكتساب والتعلم اللغويين والبناء المعرفي لبنينته الذهنية.

كلمات مفتاحية: ترجمة؛ رموز؛ ثقافة؛ قناة "البراعم"؛ أطفال.

تمثل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة في العصر الراهن قوة فكرية وثقافية بامتياز، وكلما ارتبطت هذه الوسائل بالمنظومة الفكرية والثقافية القومية والمحلية كلما كتب لها النجاح في مسعاها، وذلك من منظور أنها تنخرط مع مشاهديها في محاوره فكرية قوامها بنية ذهنية جمعية مشتركة ومنسجمة لسانيا وثقافيا.

وإنما يُناط بها هذا الدور حينما تتولى مهمة التثقيف والتوعية والترشيد لجماهير المشاهدين. ولكي تتمكن من أداء هذا الدور فلا بد أن تنسجم نصوصها ومضامينها مع الثقافات المحلية، ولا تتناقض معها

بحال من الأحوال. وذلك لأن طغيان النماذج الثقافية الغربية على عقلية الناشئة في البلدان العربية والإسلامية نتيجة القرب المكاني من ضفة البحر المتوسط يُنذر بعواقب وخيمة تتهدّد النسيج الاجتماعي المحلي بما يُنبئ بانصهار هذه الأجيال في منظومة الثقافة الغربية ويجعلها تتحلل في أتونها، بل ويجعلها تتخندق في إطارها وتتعصّب لقضاياها وهذا يجعلها في الأخير لا تحمل هموم أمّتها ولا تلقي إلا لقضاياها المصيرية.

إن واقع الحال يبيّن أن لكل أمة من أمم الأرض قوة كانت أم ضعيفة نصيبا من اعتزازها بموروثها الثقافي ودفاعها عنه إلى آخر رمق؛ وذلك حينما ينخرط الأفراد في حلبة الدفاع عن هذا الموروث من منظور إحساس كل فرد بمسؤوليته عن تراث أمته وما خلفه الأسلاف.

ومما يجدر ذكره أن حسنات الحضارة المعاصرة في ميداني الأشياء والماديات لا سبيل إلى نكرانه، لأن البشرية لم تنعم بحسنات العلم المادي بمثل ما تنعم به الآن في ظل الحضارة المعاصرة. لكن هذا الجهد الذي بذله الغربيون في مجال الحضارة - وهو جهد مشكور ولا شك - لا يمكن أن ينسينا حقيقة هامة؛ وهي أن العلم ميراث الإنسانية جمعاء أسهمت شعوب المعمورة منذ القدم في بناء هذا الصرح العلمي، والذي لا يمكن لأيّ كان أن يدّعي ملكيته الخاصة له.

غير أن ما نشهده في الوقت الحاضر من هيمنة الثقافة الغربية على كل المناحي والجوانب يبشّر بعصر جديد تكون فيه الصورة الإعلامية هي التي تكيّف أفكار المشاهدين ومعتقداتهم في إطار برامج وحوارات مشفّرة ومضمّنة بأفكار ومخططات جاهزة.

وهو ما يحمل على الاعتقاد أن هذه البرامج الإعلامية تحمل في طيّاتها اختراقا بيّنا للمنظومة الفكرية الخاصة بكل شعب من شعوب المعمورة، وذلك بما تحمله هذه الفكرة من مخاطر التعالي والتسامي على سائر البشر وكأنهم مخلوقات شائهة لانصيب لها من التقدم الفكري والحضاري. كما أن اعتماد النموذج الغربي في مجالات السياسة والفكر والأخلاق والاجتماع يجعل هذه الشعوب وعلى رأسها الشعوب العربية

والإسلامية تتخلى - طوعا أو كرها راغبة أو راهبة - عن خصوصياتها الفكرية والقيمية.

وهذه الخصوصيات الفكرية هي ما يشكّل في الحقيقة مظهر التميّز الحضاري للأمم عن أخرى. فالإنسانية تتشابه خلقيا وتركيبيا لأنّ الإنسان هو نفسه من حيث هو كائن عضوي على ظهر هذه الأرض، لكنّ هذا التشابه الظهري لم يمنع شعوب المعمورة من أن تكيّف واقعها المادي بحسب نظرتها الخاصة له.

ومثلما أسلفنا فإن الأمم تعتزّ بلغتها وبمعتقداتها وبتاريخها ولا تقبل من أيّ كان أن ينتقص منها أو يشوّهها؛ ومن صور الاختراق والنشويه لهذه المنظومة الثقافية ما تتعرّض له شعوبنا العربية والإسلامية من طغيان النماذج الثقافية الخاصة بالفكر والمخيال الغربي وهيمنتها على عقول الناشئة من أطفال العرب والمسلمين. وكثُر في صفوف هؤلاء الأطفال ترديد شعارات غريبة لا يفهمون معناها، وارتداء أقمصّة تحمل أشكالا تمجد هذا أو ذاك بدون الانتباه إلى مضامينها الثقافية المناقضة في كثير من الأحيان للمنظومة القيمية الأصيلة.

وعلى هذا الأساس فإن ما أسهم به تيار اللسانيات الإدراكية/العرفنية *La linguistique cognitive* ليؤكد على هذا المسعى الذي يجعل كلمات اللغة وألفاظها تحمل وتحمّل من الدلالات ما لا يمكن في إطاره إلاّ بربطه بالصورة الإدراكية المتأبّية أصلا من الحمولة المعرفية التي تتشكل لدى متكلّم اللغة من خلال معاشته للغته الأمّ والتي تجعل معطيات التاريخ والثقافة والحضارة تندمج في إطار اللغة وتظهر في ثناياها. وهذا المعطى الثقافي الحضاري يظهر جليا في البحوث المنجزة في رحاب هذه المدرسة اللسانية المعاصرة وخصوصا في باب

"علم الدلالة العبر-ثقافي" *La sémantique transculturelle*

« La grande majorité des mots d'une langue ont des sens complexes et relativement spécifiques qui reflètent et incarnent en quelque sorte les

expériences historiques et culturelles distinctives de la communauté linguistique concernée »¹.

يتضح من هذا أنه كلما ازداد وعي الإنسان بالمستويات الذهنية وبطرائق الإدراك الإنسانية كلما سهل ذلك معرفة الأنشطة الإنسانية التي تتأتى للإنسان وعلى رأسها فاعلية القول اللساني؛ على اعتبار أن العلامة اللسانية هي أرقى وأكمل أنواع العلامات. وفي خضم هذه الاعتبارات يبرز دور اللغة كوسيط جوهري يتعدى مجال الأصوات والجمل والنصوص إلى مجال الإدراك الذهني لهذه الوحدات اللغوية حينما تكون مُعدّة للاستعمال والتواصل. فاللغة بهذا الاعتبار ليست فقط "أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"؛ وإنما اللغة نشاط لمجال عرفني تتفاعل لتجسيدها مجمل المهارات الذهنية التي يمتلكها الإنسان من قبيل الإدراك والتذكر والتصوير والتمثيل.

وتتبع أهمية اللغة نفسها حينما تتعدّد أشكالها ممّا يفرض اللجوء إلى الترجمة التي أصبحت تكتسب دورا متناميا ضمن خارطة النشاط الإنساني الذي يشهد انفتاحا على آفاق علمية متعددة بفضل الطفرة الرقمية التي قرّبت أجيال البشرية بعضها من بعض ومهدت السبيل أمام سيل من النصوص المتعددة الأحجام والأنماط والأساليب بمختلف اللغات والألسنة. ويندرج هذا كلّ في إطار الانتباه إلى الحوامل المعرفية الكامنة في صلب ألفاظ اللغة ومدى ما تعكسه من بنية ذهنية تؤطر فاعلية القول اللساني، وتجعلها تحمل في طياتها نماذج ثقافية أشدّ ما تكون التصاقا بالمحيط الثقافي والاجتماعي الذي نبتت فيه.

« Cultural models provide frame works for understanding the physical and social worlds we live in. These models are implicitly and explicitly transmitted through language. Therefore, linguistic analyses, particularly of words and expressions reveal underlying assumptions, interests and values ».²

"إن النماذج الثقافية توفر الإطار لفهم العالم الفيزيائي والاجتماعي الذي نحيا فيه. وهذه النماذج تُتداول ضمنا أو صراحة من

خلال اللغة. لذلك فإنّ التحليلات اللسانية وخصوصا للكلمات والتعبير تكشف التوقعات والمصالح والقيم الكامنة".

يرتبط الإعلام باللغة ارتباطا وثيقا، وتقوم علاقة تبادلية بينهما بحيث يمكن القول إنّ اللغة الموجودة في وسائل الإعلام تقوم على استنفاد طاقة اللغة التعبيرية بواسطة الرموز اللغوية وغير اللغوية سعيا لتحقيق التواصل الفعال. ولتأديّة هذه المهمة المنوطة بها؛ فإن تنظيم الرموز الثقافية الواردة وفقاً للعلاقات الموضوعية بين عناصرها المختلفة، وإخراجها في قالب يستهوي المشاهد الذي هو الطفل، والذي تلعب العوامل المساعدة للغة دورا كبيرا في الشرح والإيضاح يبدو ضروريا وأساسيا.

والمقصود بذلك أن الحوارات الموجهة للأطفال ضمن برامجهم لا تقوم بدورها الأكمل إلا إذا استندت هذه النصوص إلى الصور والأشكال والرموز والأصوات والموسيقى والرسم والإيقاعات المختلفة، وهو ما من شأنه أن يعمل على تعزيز الرسالة التربوية وتثبيتها في ذهن الطفل. فقد بلغت وسائل الإعلام في العالم المعاصر شأوا بعيدا ومؤثرا من حيث تأثيرها في اللغة وتراكيبها، وذلك باختيار الأصوات الملائمة، والنبرات المؤثرة، والصور الجذابة، والمصطلحات المتداولة، والشخصية الملائمة.

وبإمكان وسائل الإعلام المتنوعة أن تمارس دورها المساند لبقية أطراف اللغة أيضا، وذلك بإسهامها في إيجاد هذه البيئة السماعية الفصيحة. وبإمكان هذه البيئة، بيئة السماع والمشاهدة، إذا ما أحسن استثمارها وتوظيفها، أن تجعل اللغة العربية الفصيحة المعاصرة الميسرة السهلة لغة الإعلام، في كل فعالياته ومجالاته وبرامجه.

ولا ريب في أن القنوات الإعلامية المسموعة منها والمرئية بإمكانها أن تمهّد الطريق أمام انتشار كثير من الأساليب والتراكيب والكلمات المختلفة التي تتناول مظاهر الحياة وأنماطها المختلفة. وهذا من شأنه أن يودّي إلى شيوع الأساليب والتراكيب اللغوية السليمة لدى

الأطفال وترسخ ذلك عبر الزمن؛ وبكثرة المِران والممارسة يتهيأ لهم اندماج لغوي سليم في منظومة المجتمع الكبير.

"إن الأفعال اللغوية تنجز داخل الجماعة اللغوية وفق قواعد قد تعلمها كل شريك لغوي في عملية تكيفه الاجتماعي تعلمًا تامًا بدرجة أكثر أو أقل يمتلك شركاء الاتصال إذن معرفة مشتركة عن أيّ شروط ووفق أيّ قواعد يمكن أن تجرى أفعال لغوية معينة في مواقف التواصل"³.

تمثل قناة "براعم" بحضورها في أقمار صناعية متعددة نافذة ثقافية هامة جدًا قد تعكس اندماج المحيط العربي في منظومة العولمة التكنولوجية وانفتاحها على هذه الوسائل المتجددة بما ينبئ بالتمهيد لبروز جيل من الشباب العرب الذي يفتحون على ثقافات العالم؛ وقد يكون ذلك مدعاة لانصهار هذه الجحافل من الأطفال والشباب في أتون ثقافة كونية وعالمية لا ترحم بعد أن تجاوز مصطلح العولمة إطار المال والاقتصاد والتجارة والسياسة ليلج أطرا وأنساقا ثقافية وحضارية بامتياز.

أصبح الغرب بواسطة الآلة الإعلامية الرهيبة التي يمتلكها هو المتحكم في الرأسمال الثقافي الذي يعكس رؤيته الخاصة والمحددة للحياة والأحياء، وذلك بواسطة كمّ هائل من البرامج والمسلسلات والأشرطة الوثائقية والتحقيقات والحوارات والندوات التي تسندها آلة تكنولوجية تتوسل بوسائل تقنية فائقة الدقة وتعتمد على جاذبية الصورة والصوت والأداء من أجل تمرير الرسائل والمضامين الفكرية التي لا يمكن التكهّن بخطورتها وأبعادها إلا بعد تشفيرها وتحليل النصوص التي تقوم بالترويج لها.

ويُقصد بالمحدّات الثقافية والاجتماعية "مجموع الممارسات التي يقوم بها الشخص والتي شيّدتها قيم الثقافة والإيديولوجيا السائدة، مثل الطبقة الاجتماعية، والجنس، والدين... لأن الإيديولوجيا والثقافة تحوّلان الأفراد إلى ذوات، ويأتي اللسان ليعبّر عن هذا الفعل لأنّه هو الذي يضمن للثقافة استمراريتها عن طريق الخطابات"⁴.

وفي إطار خصوصية الثقافة العربية والإسلامية تأتي تجربة قناة "براعم" للأطفال والتي ورد في ديباجتها في موقعها الإلكتروني كتعريف لها أنها:

"قناة ما قبل المدرسة؛ وهي أول قناة عربية مصممة وموجهة لهذه الشريحة العمرية وتملكها مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع.

براعم قناة مرافقة يوميا للأطفال دون سن السادسة وأمهاتهم. وقد تم تصميم مختلف برامجها المنتجة في القناة أو المنتقاة من شركات الإنتاج العالمية بعناية كبيرة كي تساهم مشاهدة القناة في تقوية مدارك الأطفال وتعزيز قدرة استيعابهم للأشياء المحيطة بهم. كما تقدم "براعم" مضمونا تلفزيونيا تربويا لتعلم الكتابة والحساب والتألف مع البيئة وتمييز الأشكال والألوان...

يغطي بثّ براعم وهي قناة مفتوحة على الهواء، العالم العربي وأوروبا على ثلاثة أقمار صناعية وهي "عربسات" و"نايلسات" و"هوتبيرد" على مدى 17 ساعة⁵.

وفي هذا الإطار ومن أجل تقريب الصورة أكثر نطلع على البرامج التي تعرضها هذه القناة على الأطفال ومحاولة استجلاء ما يمكن استجلاؤه من خصوصيات محلية أو عالمية في مضامين هذه البرامج.

هذه البرامج التي تتنوع - في حقيقة الأمر - بين حقول متعددة بين علمية وثقافية ومعيشية وتسلية ومسرح وغيرها من البرامج الهادفة.

وما يمكن ملاحظته في هذا الإطار أنها تستهدف فئة عمرية شديدة الحساسية والمرونة وهي فئة الأطفال دون سن السادسة، وهذه الفئة - في هذه السن - تمر بمرحلة من الاكتساب اللغوي الذي يترافق بل ويتآزر مع نمو معرفي وإدراكي نشط يهيئها للاندماج الاجتماعي

السلس، أو قد يكون له من العواقب الوخيمة ما يندر بنتائج سلبية عليها وعلى المجتمع من حولها.

ويقع أمر الترجمة في صلب الإشكاليات التي يطرحها أدب الأطفال بصفة عامة، ويقع كذلك في صلب الإشكاليات المرتبطة بعملية النمو الجسمي والنفسي والاجتماعي والذهني للطفل في بيته ومحيطه. وذلك لأن العمليات العقلية التي تمكن الطفل من اكتساب لغته بسلاسة ويسر يكون لها الأثر الفعال في صقل شخصيته وإمدادها بالزاد المعرفي الكافي لإثراء رصيده المعجمي والدلالي.

كما ينعكس ذلك على قدرته على تعلم لغات جديدة انطلاقاً من درجة إجادته وإتقانه للغته الأم. وبالتالي فهذه الاعتبارات كلها تجعل أمر ترجمة النصوص اللغوية التي تعرض في برامج الأطفال وفي قناة براعم من الأهمية بمكان. كما تكتسب النصوص المترجمة من خلال البرامج المعروضة نافذة نستطيع من خلالها استجلاء أبعاد الترجمة ودورها في عملية الاكتساب اللغوي الذي ينعكس بدوره على عمليات التمثيل الذهني.

تؤدي العوامل البيئية المحيطة بالطفل في سنوات الطفل الأولى دوراً أساسياً في صقل شخصيته وتهيئته للاندماج الفاعل في الحياة الاجتماعية، وعلى هذا الأساس تؤكد المنظمات الدولية ومن ضمنها "الاتحاد العالمي لتربية الطفولة" Association for Childhood Educational International (ACEI) على أهمية السنوات التي تسبق المدرسة مباشرة أو التي يقضيها الأطفال في الروضة بشكل خاص على نموهم بمظاهره المختلفة (الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية والروحية). وهذا من منطلق إدراك هؤلاء الاختصاصيين لما للتربية من أهمية في هذا المجال، من خلال الإشادة بتلك البرامج ذات الجودة العالية التي توفر خبرات مناسبة للأطفال: لغوياً، وثقافياً ونمائياً.

ومن هذا المنطلق تمثل تجربة مؤسسة قطر للتربية والعلوم بادرة هامة جداً في إطار ممارسة الحق الإعلامي للطفل بواسطة برامج

تستجيب لمعيار النوعية الثقافية وتحقق درجة من الانفتاح على ثقافات العالم المتعددة.

إنه برنامج تربوي يقدم للأطفال الصغار (بين 3 و6 سنوات) خصوصا بيئة غنية وخصبة من شأنها أن تسهم في إمداد هؤلاء الأطفال بالزاد الثقافي الكافي في مسيرة الاكتساب والتعلم اللغويين، اللذين يستجيبان للحاجات النفسية لهم ولا يحرمهم من هذه النوافذ الإعلامية المتميزة.

"إن قناة براعم ولا شك سوف تسهم في إثراء ذاكرة فلذات أكبادنا وتقدم لهم عبر إنتاجها المتميز ما يتلاءم مع هويتنا الإسلامية والعربية، بعيدا عن الأعمال التي تقوم جهات عدة باستيرادها والتي قد تخلق فجوة في ذاكرة البراعم.

إن الأطفال في هذه المرحلة هم الركيزة الأساسية وتقوية مداركهم بكل ما هو مفيد أمر في غاية الأهمية، سواء كان هذا الهدف يتمثل في الإطار الذهني، أو الجسدي، أو النفسي"⁶.

نحاول أن نستعرض جملة البرامج التي تقترحها على مدار ساعات بثها، وهذه البرامج هي:

"أحلى صباح مع إيمان"، "وإيبولو"، "فان دوغ"، "مرمر والأصدقاء"، "ماتون"، "اكتشف مع إيميلي"، "كبير وصغير"، "أباداس"، "نان وليلى"، "مع الكواكب"، "بينكي دينكي دو"، "الأصدقاء المرحون"، "بابار ومغامرات بادو"، "حكايات تينغا تينغا"، "الجرار الأحمر الصغير"، "أميرات البحر"، "حديقة الألحان"، "جزيرة لولو"، "الأوفياء يحمون كوكب الأرض"، "قطار الديناصور"، "مدينة السحاب"، "فافا"، "حروف ورسوم مع رانيا ونون"، "الأخوان وات وات".

هذه البرامج يقع تقسيمها على فترات زمنية، ويعاد أغلبها عبر فترات النهار، لأن هذه القناة كما سلف ليست على مدار الساعة، وإنما يمتد بثها عبر ساعات النهار، وبالتالي يتوقف بثها في الفترة المسائية.

حينما نستطلع البرامج السابقة نميز بين مجموعة كبيرة ومختلفة من النصوص المعروضة. فمن جهة هناك برامج محلية الإنتاج وأخرى غير محلية أي مترجمة، وهي كثيرة. ويعرف ذلك من خلال جنريك البداية والنهاية الذي يسوق أسماء المنتجين والمخرجين فإذا أسماؤهم كلها أجنبية.

كما تقوم عناوين هذه البرامج خير دليل على ذلك، أي أن العناوين معربة وليست مترجمة، مثل:

"وايبوللو"، "فان دوغ"، "مانون"، "أباداس"، "بينكي دينكي دو"، "بابار ومغامرات بادو"، "حكايات تينغا تينغا"، "جزيرة لولو"، "قطار الديناصور"، "فافا"، "الأخوان وات وات". وأما باقي البرامج فقد خضعت للترجمة على مستوى العبارة مثل: "اكتشف مع إيميلي"، "الجرار الأحمر الصغير"، "أميرات البحر"، "حديقة الألمان".

فإذا ما تجاوزنا جانب العناوين وتوجهنا صوب المضامين النصية، فسوف نلاحظ أن اللغة المستعملة في هذه البرامج هي لغة سليمة التراكيب وقياسية فصيحة. وهذا له الأثر البالغ على الطفل وعلى صحة اكتسابه للنظام النحوي للغة العربية في أحسن الأحوال والحالات. وهذا على خلاف كثير من القنوات التي تسعى إلى تسويق منتجها بالالتجاء إلى اللهجات المحلية أو الإقليمية.

وهو الشيء الذي ينطوي على مخاطر أكيدة تمس آلية اكتساب النظام النحوي الصحيح والفصح للغة العربية. كما يمكن التأكيد على أن المخاطر التي يمكن تسجيلها على مستوى الاكتساب اللغوي فتصيبه بالعوارض وبالعوائق المختلفة، سينسحب أثره على التعلم اللغوي لاحقاً

حينما تنطلق مسيرة التمدرس لدى الطفل. والشيء بالشيء يذكر أن الأثر الإيجابي الذي تمارسه نصوص قناة براعم على الأطفال من جهة حسن استقبالهم للغة العربية سليمة وفصيحة خالية من الغريب والشاذ قبل سن التمدرس؛ يؤدي إلى حسن تعلمهم للغة العربية لاحقاً في حجرات الدراسة. وقد سجل كثير من الأولياء تحسن لغة أبنائهم العربية بعد زيادة جرعات متابعتهم لقناة "براعم" على وجه الخصوص.

وهذا ما يجعل التركيز على نوعية البرامج المترجمة وأثرها الإيجابي أو السلبي على البنية الذهنية للأجيال العربية التي تشاهده قناة "براعم" للأطفال.

وبالتالي فإن المترجمين لهذه النصوص يقع عليهم عبء كبير؛ يتمثل في المحافظة على أمانة النص الأصلي وعلى أمانة الأجيال من الأطفال الذين يشاهدون هذه القناة. فعلى المترجم أن يدرك ابتداءً أن النص المترجم الحامل لثقافة معينة هو بالمحصلة حامل لتصور وإدراك معينين ولكن ضمن إطار ثقافي محدد يقوم على أساس احترام أجديات هذه الثقافة أينما حلت وارتحلت، وكل ذلك يتم بواسطة اللغة وتراكيبها اللسانية؛ يستوي في ذلك أن تُصاغ بعبارات اللغة الأصل أو عبارات اللغة الهدف. وذلك من منطلق أن المحافظة على ثقافة النص الأصلي هو مطلب أساسي وجوهري. وهذا في الوقت الذي يفرض على المترجم أن يعمل على تطويع النصوص بواسطة الترجمة كي لا تكون النصوص المترجمة هي التي تخلق الارتباك المفهومي لدى المتلقي الطفل.

هذا الطفل الذي تشكله مرحلة عمره قبل - مدرسية مرحلة حساسة جداً. فهو - في هذه المرحلة - مثل الصفحة البيضاء Tabula « raza يستقبل كل ما يُلقى إليه بدون وعي منه أو تأويل أو إعادة تمثيل.

كما أن توارد رموز وصور وشعارات ثقافية غريبة عن بيئة الطفل الحقيقية يجعله يبحث عنها بدافع الفضول واستقصاء المعلومة. وأثناء هذا البحث تكون هذه الصور والرموز قد علفت بذهنه واحتلت مساحة من تفكيره وخياله. وهو ما يفرض على المترجمين الانتباه إلى

الحوامل الثقافية التي تتناقض مضامينها مع البيئة الذهنية للطفل العربي والتي هي في طور التشكل والإنجاز. وبالتالي فالنصوص - كائنة ما كانت اللغة التي صيغت بها - ليست محايدة ولا بريئة وإنما هي وعاء الثقافة والحضارة والقيم والمعتقدات. "ومن ثم تصبح العلامة اللغوية مركز استقطاب لفكرة ثقافية، وأداة توصل ليعاد إنتاجها مرة أخرى، ومن ثم تكتسب المصدقية والاستمرار، وتكتسب الفكرة الثقافية قيمتها داخل العلامة اللسانية"⁷.

فإذا كان المربون وكل من ينخرط في العملية التربوية للطفل يسعون لترسيخ ثقافة العقلانية والاحتكام إلى العقل في ميادين الحياة، فإن بعض الشخصيات في برامج "براعم" تتناقض مع هذا الاتجاه بحيث تقوم بتحقيق الأماني والرغبات بمجرد ترديد تعويذة معينة. وهو ما يمكن ملاحظته في برنامج "قطار الديناصور"، من خلال ما يقوم به الديناصور "ديبو". ولا ريب أن هذا النوع من التصرفات لا ينسجم مع أجديات التربية السليمة فضلا عن مقتضيات العقيدة الإسلامية الأصيلة.

وهذا في الوقت الذي تسعى فيه برامج أخرى إلى ترسيخ ثقافة العلم على أسسه الصحيحة مثل برنامج "زيد والعلوم" الذي يُعرض بطريقة فنية وموسيقية مشوقة مضمونا علميا وتجارب واقعية يستفيد منها الأطفال.

وهذه البرامج العلمية هي برامج في أغلبها محايدة لأن العلم بطبيعته ذو صبغة محايدة إلا ما تعلق منه بنتائجه وتطبيقاته اللاحقة. فالأصل في العلم الطبيعي التجريبي أن لا يعترف بالحدود الجغرافية ولا الحواجز العرقية. أما النصوص الحوارية والخطابات وغيرها من البرامج الترفيهية والتنشيطية فهي حاملة لبطاقة هوية ثقافية خاصة تكون كامنة في صلب النصوص وتنتقل مع الترجمة لتمارس حضورها الفكري في اللغة الهدف. وهذه الاعتبارات تجعل المترجم الواعي مدركا لحجم المسؤولية الملقاة على كاهله.

« Dire que le traducteur peut transcender à volonté les représentations symboliques constitutives de sa culture, cela revient par ailleurs à croire que la traduction est une activité soustraite à l'impensé qui atteint tous les autres domaines des productions humaines dans le moment de leur histoire »⁸.

وبالتالي يتبين أن اتجاهها نحو فهم الرمز الثقافي في لغته الأصلية ثم محاولة تكيفه أو تبيئته يبدو جديرا بالبحث والتقصي، لأن العدوان على الهويات الحضارية يدخل في خانة العدوان على الحياة نفسها.

وقد مثلت تجربة قناة "براعم" منذ انطلاقتها ميدانا لفرق من الاختصاصيين في مجال ترجمة النصوص الموجهة للطفل العربي، ويمكن القول إنها كسبت إلى حد ما رهان اللغة المستعملة وتجاوزت مجال الإقليمية الضيق سعيا نحو تحقيق نسب إقبال من هذه الشريحة الواسعة من أطفال العرب. غير أن الأمر على مستوى المضامين النصية الحاملة للثقافة والفكر والقيم يبقى محل تساؤل لا يمكن الحكم عليه في الوقت الراهن. وذلك لأن التفاعلات الثقافية التي يمكنها أن تصيب البنية الذهنية للطفل تبقى كامنة ولا تظهر غالبا إلا بعد فترات زمنية لاحقة، من خلال ردود أفعاله، ومن خلال اختياراته على مستوى نمط الحياة الذي يرتضيه لنفسه وينتصر له ويتشبع به، بل ويصبح مبدأه في الحياة لا يرضى بديلا عنه سواء وافق بيئته الأصلية أم خالفها.

يتبين لنا أن ترجمة النصوص الموجهة للأطفال تكتسي أهمية بالغة لحساسية الفئة العمرية المستهدفة ولأثر هذه النصوص ووقعها على البنية الذهنية للأطفال، باعتبارهم في غالب الأحيان مستقبلين حياديين لم يُشركوا في اختيار النصوص المعروضة عليهم وبالتالي يغيب عنصر الاختيار الممنوح لفئة البالغين، وهو ما يلقي عبء المسؤولية للقائمين على ترجمة هذه النصوص واختيارها للعرض والمشاهدة.

هوامش:

1/ Nicole Delbecque: Linguistique cognitive, De Boeck. Duculot, Belgique, 2006, p172.

2/ Nancy Bouvillain: Language, culturel and communication, Prentice Hall New Jersey, USA, 2003, p73.

3/ كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، ترجمة سعيد حسين بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص110.

4/ عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص22.

5/ <http://www.baraem.tv>.

6/ <http://www.startimes.com/>

8/ Paul Bensimon, Didier Coupaye: Traduire la culture, Annie Brisset, Palimpsestes N11, Presses de la Sorbonne Nouvelle, Paris, France, 1989, p31.